الباب الرابع

فى علمه وزهده وورعه ورفع همته وحلمه وصبره وسداد طريقته

كان رضى الله عنه لا تتحدث معه فى علم من العلوم إلّا تحدث معك فيه، حتى يقول السامع: إنه لا يحسن غير هذا العلم - لاسيّما علم الحديث والتفسير.

وكان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه.

وكان كتابه فى أصول الدين «الإرشاد»، وفى الحديث كتاب «المصابيح»، وفى الفقه «التهذيب والرسالة» وفى التفسير كتاب ابن عطية[1].

ولقد كان يقرأ عليه بعض المفرقين فى العربية فيردّ عليه اللحن.

وأما علوم المعارف والأسرار فقطب رحاها وشمس ضحاها، تقول إذا سمعت كلامه: هذا كلام من ليس وطنه إلّا غيب الله، هو بأخبار أهل السماء أعلم منه بأخبار أهل الأرض.

وسمعت أن الشيخ أبا الحسن قال عنه: أبو العباس بطرق السماء أعرف منه بطرق الأرض.

كنت لا تسمعه يتحدث إلّا فى العقل الأكبر، والاسم الأعظم، وشعبه الأربع، والأسماء، والحروف، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملاك المقربين عند العرش، وعلوم الأسرار، وأمداد الأذكار، ويوم المقادير، وشأن التدبير، وعلم البدء، وعلم المشيئة، وشأن القبضة، ورجال القبضة، وعلوم الأفراد وما سيكون يوم القيامة من أفعال الله مع عباده من حلمه وإنعامه، ووجود انتقامه، حتى لقد سمعته يقول:

والله لولا ضعف العقول لأخبرت بما يكون غدًا من رحمة الله.

وإن تنزل إلى علوم المعاملة ففى الزمن اليسير لحاجة الخلق إلى ذلك؛ ولذلك قلّ أتباع من هذه علومه، وقد يكثر المشترى للمرجان، وقل أن يجتمع على شراء الياقوت اثنان؛ ولذلك كان يقول رضى الله عنه:

أتباع أهل الحق قليلون وقد قال الحق سبحانه:

﴿وقليل ما هم﴾.

وقال سبحانه: ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾.

---

(١) كتاب ابن عطية: هو كتاب المحرر الوجيز، وله من اسمه نصيب، فهو محرر، وهو فى عرف ابن عطية وجيز، وإن كان متوسط الحجم، وما زال الكتاب مخطوطًا، ولكن عدّة جهات تعمل على نشره، ونرجو الله له التوفيق.

وقال سبحانه: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وقال فى أهل الكهف: ﴿ما يعلمهم إلاّ قليل﴾.

فأولياء الله أهل كهف الإيواء فقليل من يعرفهم.

وسمعته رضى الله عنه يقول: معرفة الولىّ أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله. ومتى حتى تعرف مخلوقًا مثلك، يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب.

وأما زهده فى الدنيا فيستدلّ على الزهد فى الدنيا بالزهد فى الرئاسة، ويستدلّ على الزهد فى الرئاسة بالزهد فى الاجتماع بأهلها، ولقد مكث رضى الله عنه بالإسكندرية ستا وثلاثين سنة ما رأى وجه متولّيها ولا أرسل إليه، وطلب ذلك المتولّى بالإسكندرية فأبى الشيخ من ذلك.

وقال له الزكى الأسوانى: يا سيدى متولى الإسكندرية قال: إنه يريد الاجتماع بك، ويأخذ بيدك فتكون شيخه.

فقال له الشيخ: يا زكى، لست ممن يُلعب به، والله إنى ألقى الله، ولا يرانى (المتولّى) ولا أراه فكان كذلك.

وكان إذا نزل بلدةً وقيل له: متولّى البلد يريد أن يأتيك غدًا، سافر هو ليلًا.

ولقد كان يأتى إليه متولّى الثغر وناظره ومشدّ الدواوين به، قليلة إتيانهم، يغلب القبض عليه، ولا ينبسط للكلام كحاله فى عدم حضورهم، حتى كنّا نقول: ليت ذلك الكلام الذى كان فى غيبتهم كان ليلة حضورهم.

ولقد أتى إليه الشجاعى فى بحبوحة عزّه، وتمكّنه من السلطنة، فما ألوى إليه عنان همّته، ولا فوّق إليه سهام عزيمته، حتى لقد بلغنى أن الزكى الأسوانى لما استعرض للشجاعى حوائجه قال للشيخ: يا سيدى اطلب منه أرضًا يزرعها أصحابك.

فقال: يا زكى هذا ما لا يكون أبدًا.

ومن زهده رضى الله عنه أنه خرج من الدنيا وما وضع حجرًا على حجر، ولا اتخذ بستانًا؛ ولا افتتح سببًا من أسباب الدنيا؛ ولا خلف وراءه ورقة مع أن الزهد وصف من أوصاف القلوب يصف الله به قلب من أحبّه، ولكن له علامات تدل عليه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: رأيت الصِّدّيق فى المنام؛ فقال لى: أتدرى ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قلت: لا أدرى؛ قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد، ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المنام؛ فقلت: يا أمير المؤمنين ما علامة حبّ الدنيا؟ قال: خوف المذمّة وحبّ الثناء.

فإذا كان علامة حبّها خوف المذمّة؛ وحبّ الثناء، فعلامة الزهد فيها وبغضها أن لا يخاف المذمّة ولا يُحب الثناء.

وأما ورعه فلقد أخبرنى بعض أصحابه أنه دخل يومًا بيت واحد من الجماعة فى البرج الذى هو فيه فوجده يضرب فيه وتدًا؛ قال: فاتفق للشيخ من الحرج الأمر الكبير، وقال كيف يحلّ لك أن تتصرف فى الحبس[٢] بأمر لم يؤذن لك فيه.

وكان يقول: والله ما دخل بطنى حرام قط.

وكان يقول: الورع من وَرَّعه الله.

وقال رضى الله عنه: عزم علينا بعض صلحاء الإسكندرية فى بستان له بالرمل، فخرجت أنا وجماعة من صلحاء الثغر، ولم يخرج معنا صاحب البستان ذلك الوقت، بل وصف لنا المكان فتجارينا ونحن خارجون الكلام فى الورع، فكلٌ قال شيئًا، فقلت لهم: إنما الورع من ورعَّه الله، فلما أتينا البستان، وكان زمن ثمرة التوت كلهم أسرع إلى الأكل وأكل، وكنت كلما جئت لآكل أجد وجعًا فى بطنى، فأرجع فينقطع الوجع عنى، فعلت ذلك مرارًا فجلست ولم آكل شيئًا، فهم يأكلون، وإذا بإنسان يصيح: كيف يحلّ لكم أن تأكلوا من ثمرة بستانى بغير إذنى، فإذا هم قد غلطوا بالبستان، فقلت لهم: ألم أقل لكم إن الورع من ورعه الله سبحانه؟

واعلم رحمك الله أن ورَع الخصوص لا يفهمه إلّا قليل فإن من جملة ورَعهم تورّعهم عن أن يسكنوا لغيره أو أن يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم بالطمع فى غير فضله وخيره.

ومن ورعِهم ورعُهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب، وخلع الأنداد والأرباب.

ومن ورعِهم ورعُهم عن الوقوف مع العادات، والاعتماد على الطاعات، والسكون إلى أنوار التجلّيات.

ومن ورعِهم ورعُهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة، تورّعوا عن الدنيا وفاءً وعن الوقوف مع الآخرة صفاءً.

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء: خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت علىّ: بعزّها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها، فأعرضت عنها، فعرضت على الجنة: بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها.

فقيل لى: يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية، ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنّا، فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك.

وقال الشيخ عبد الرحمن المغربى - وكان مقيمًا بشرقى الإسكندرية - حججت سنةً من السنين، فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الإسكندرية، فإذا قائل يقول لى: إنك العام القابل عندنا، فقلت فى نفسى: إذا كنت العام القابل ههنا فلا أعود إلى الإسكندرية، فخطر لى الذهاب إلى اليمن، فأتيت إلى «عدن» فأنا يومًا على ساحلها أمشى، وإذا أنا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم، ثم نظرت فإذا رجل قد فرش سجادةً على البحر، ومشى على الماء فقلت فى نفسى: لم أصلح للدنيا ولا للآخرة، فإذا قائل يقول لى: من لا يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

(٢) الحبس: هو الوقف - والمراد أنه يدق وتدًا فى بناء الوقف.

وقال الشيخ أبو الحسن:

الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه.

فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله، وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله، على البيّنة الواضحة والبصيرة الفائقة.

فهم فى عموم أوقاتهم، وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكّرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلّا بالله ولله من حيث يعلمون، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون فى عين الجمع لا يتفرّقون فيما هو أعلا، ولا فيما هو أدنى، وأما أدنى الأدنى: فالله يُورِّعهم عنه ثوابًا لورعهم، مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى، وميراثه التعزز لخلقه، والاستكبار على مثله، والدلالة على الله بعلمه، فهذا هو الخسران المبين، والعياذ بالله العظيم من ذلك.

والأكياس يتورّعون عن هذا الورع، ويستعيذون بالله منه، ومن لم يزدد بعلمه وعمله افتقارًا لربّه، وتواضعًا لخلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيرًا من الصالحين بصلاحهم عن مصلحتهم كما قطع كثيرًا من المفسدين بفسادهم عن موجدهم، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم.

فانظر فهّمك الله سبيل أوليائه، ومنَّ عليك بمتابعة أحبّائه هذا الورع الذى ذكر الشيخ رضى الله عنه: هل كان فهمك يصل إلى مثل هذا النوع من الورع؟ ألا ترى قوله: «فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البيّنة الواضحة والبصيرة الفائقة».

فهذا هو ورع الأبدال والصدّيقين لا ورع المتنطّعين الذى ينشأ عنه سوء الظنّ وغلبة الوهم.

وأما رفع همته فكان آتيًا من ذلك بالعجب العجاب، وقد تقدم من رفع همته عن ولاة الأمر مع استعراضهم لحوائجهم وتطارحهم عليه.

وقال رضى الله عنه يومًا لأصحابه: جاءنى اليوم الطواشىُّ بهاء الدين وهو مشدّ الدواوين إذ ذاك والفقيه شمسُ الدين الخطيب - وهو يومئذ ناظر الأحباس[٣] - فقالا لى: إن هذه القلعة تحتاج إلى حصر وزيت، وقناديل، ويحتاج الفقراء فيها ما يأكلون ونحن حكّام الوقت نطلق لها شيئًا فى كل شهر.

قال: فقلت لهم: حتى أشاور أصحابى، وأنتم أصحابى فماذا تشيرون؟

فلم يرجع إليه أحد جوابًا، فأعاد الأمر مرارًا فلم يجبه أحد.

فقال: اللهم اغننا عنهم، ولا تغننا بهم إنك على كل شىء قدير، ولم يجبهم إلى ما ذكروا، ومات الشيخ رضى الله عنه، وليس للمكان مرتّب ولا معلوم.

وسمعته رضى الله عنه يقول: والله ما رأيت العزّ إلّا فى رفع الهمة عن الخلق.

وسمعته يقول: رأيت كلبًا فى المحجة، ومعى شىء من الخبز فوضعته بين يديه، فلم يلتفت إليه،

---

(٣) الأحباس: الأوقاف.

فقربته من فيه فلم يلتفت إليه، فإذا قائل يقول لى: أفّ لمن يكون الكلب أزهد منه.

وسمعته يقول: خرجت يومًا أشترى حاجة من بعض من يعرفنى بنصف درهم، فقلت فى نفسى: ولعلّه لا يأخذه منى، فإذا قائل يقول لى: السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين.

قال: فأتيت إلى الموضع الذى كنت مقيمًا به، ودخلت وأغلقت الباب، فأنا جالس، وإنسان قد فتح الباب بمرّة[٤]، وقال: بماذا تكون السلامة فى الدين؟

قال: فقلت: بترك الطمع فى المخلوقين، فأخذها كأنما كانت ضالّةً وجدها، فتبين من حاله أن الشيخ أبا الحسن كان قد قال له: اذهب إلى موضع الغلة، فاكتل لك ثلاث ويبات، فذهب فاكتال لنفسه إردبًّا، فبلغ ذلك الشيخ فقال: دعوا ما اكتاله فى موضعه، وأعطوه ثلاث ويبات التى كنّا أعطيناه إياها.

وقال رضى الله عنه: الطمع ثلاثة أحرف، كلها مجوفة فهو بطن كله؛ فلذلك صاحبه لا يشبع أبدًا.

وكان يقول رحمه الله: للناس أسباب، وسببنا نحن الإيمان والتقوى قال الله سبحانه: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوْا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[٥] تنبيه وإعلام:

اعلم أن رفع الهمّة عن الخلق شأن أهل الطريق، وصفة أهل التحقيق، ولقد سئل الجنيد: أيزنى العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، ولعمرى لو سئل: أيطمع العارف فى غير الله؟ لقال: لا، وإنما مراد الحق سبحانه أن يعبده العباد فى كل شىء حُبًّا وثقةً، وتوكلًا وخوفًا ورجاءً، وذلك الذى تستحقه فرديته.

وكان بعض العارفين ينشد:

حرام على من وحّد الله ربّه ... وأفرده أن يجتدى[٦] أحدًا رفدا
ويا صاحبى قف لى مع الحق وقفة ... أموت بها وجدًا وأحيى بها وجدا
وقل للملوك الأرض تجهد جهدها ... فذا الملْكُ مُلك لا يباع ولا يُهدى

ورفع الهمة إنما ينشأ عن صدق الثقة بالله.

وصدق الثقة بالله إنما ينشأ عن الإيمان بالله على سبيل المعاينة والمواجهة، فيوجب لهم إيمانهم الإعزازَ بالله، قال الله سبحانه:

﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾[٧].

والنصر من عند الله، قال سبحانه:

﴿وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين﴾[٨].

---

(٤) مرّة بكسر الميم أى قوّة.
(٥) الأعراف: ٩٦.
(٦) يجتدى: يطلب العطاء.
(٧) المنافقون: ٨.
(٨) الروم: ٤٧.

والنجاة من العوارض الصادّة عن الله قال سبحانه:

﴿كذلك حقًّا علينا نُنْجِ المؤمنين﴾(٩).

فعزّ المؤمن بالله ثقته بمولاه، ونصرته على نفسه وهواه، ونجاته من العوارض أن تقطعه عن سبيل هداه.

وشعار أهل الإرادة ودثارهم الاكتفاء بالله، ورفع الهمّة عمّا سواه، وصيانة ملابس الإيمان من أن تدنس بالميل إلى الأكوان، والطمع فى غير الملك المنّان.

ولنا فى هذا المعنى:

بكرت تلوم على زمان أجحفا ... فصدفت(١٠) عنها علّها أن تصدفا
لا تكثرى عتبا لدهرك إنه ... ما أن يطالب بالوفاء ولا الصفا
ما ضرنى أن كنت فيه خاملاً ... فالبدر بدر إن تبدّى أو خفى
الله يعلم أننى ذو همّة ... تأبى الدنايا عفّةً وتطرّفا
لم لا أصون على الورى ديباجتى ... وأريهم عزّ الملوك وأشرفا
أأريهم أنى الفقير إليهم ... وجميعهم لا يستطيع تصرّفا
أم كيف أسأل رزقه من خلقه ... هذا- لعمرى إن فعلت- هو الجفا
شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله ... عجزٌ أقام بحامليه على شفا
فاسترزق الله الذى إحسانه ... عمّ البريّة منّةً وتعطُّفا
والجأ إليه تجده فيما ترتجى ... لا تعد عن أبوابه متحرِّفا

والذى يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله: علمك بأنه لم يخرجك إلى مملكته إلاّ وقد كفاك، ومنحك وأعطاك، ولم يبق لك حاجة عند غيره، وإذا كان قد اقتضى لهم الفهم عن الله أن يكتفوا بعلمه عن مسألته، فكيف لا يوجب لهم الفهم عن الله الاكتفاء بعلمه عن سؤال خلقه؟

ومن فاتحه الحق سبحانه بشىء مما فاتح به أحبّاءه فقد اقتضى منه رفع همته إليه كما اقتضاه من غيره وأولى.

ألم تسمع قوله سبحانه:

﴿ولقد آتيناك سبْعا من المثانى والقرآن العظيم. لا تمدَّنَّ عينيك﴾(١١) الآية. وكيف لا تكون منّته فيك ومواهبه وفواتح عنايته وخصائص ولايته، ناهية لك عن التعلق بغيره؟

وكان بعض العارفين ينشد:

أبعد نفوذى فى علوم الحقائق ... وبعد انبساطى فى مواهب خالقى
وفى حين إشرافى على ملكوته ... أرَى باسطًا كفًّا إلى غير رازقى؟

---

(٩) يونس: ١٠٣.

(١٠) صدفت: أى أعرضت.

(١١) الحجر: ٨٧، ٨٨ - وتمام الآيتين: ﴿لا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجًا منهم، ولا تحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

فإن كل ذى رتبة من المخلوقين لا يرضى منك أن تنسب له رتبة تضيف المنع والعطاء والولاية والعزل فيها لغيره؟

فاحذر أن تكون من الذين قال الله سبحانه فيهم:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾(١٢).

وقبيح أن تكون فى دار ضيافته وتوجُّه وجه طمعك لغيره.

ولنا فى هذا المعنى:

أيحسن بى أنى نزيل ذراكم(١٣) أوجِّه يومًا للعباد رجائيا
بلى إننى ألوى إليك أخلّف فيها ما سواك ورائيا

ولا تطلب ممن هو بعيد عنك، وتترك الطلب من مولى هو أقرب إليك من حبل الوريد.

ألم تسمع قول الله تعالى:

﴿وإذا سألك عبادى عنّى فإنى قريب﴾(١٤) الآية.

وقال سبحانه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾(١٥) الآية.

وقال سبحانه: ﴿ادعونى أستجب لكم﴾(١٦).

وقال سبحانه: ﴿واسألوا الله من فضله﴾(١٧).

وقال سبحانه: ﴿وإن من شىء إلّا عندنا خزائنه﴾(١٨).

كل ذلك ليجمع هم عباده عليه، وكيْلا يرفعوا حوائجهم إلّا إليه.

وأما حلمه رضى الله عنه فكان من شأنه أنه لا ينتقم لنفسه ولا ينتصر لها.

ولقد دخلت عليه يومًا فقال لى: ما تقول فى فلان - رجل كان قد آذى الشيخ الأذى البالغ، أتى إلى أصحاب فلان بعض من كان له الأمر فى ذلك الزمن، وكان يتردّد إلى الشيخ وقالوا: يا سيدى هذا الرجل الذى آذاك نسعى فى ضربه وإشهاره فى البلدتين مصر والقاهرة فماذا تقول أنت؟ قلت: مصلحة.

فقال كالمنكر: لأى شىء؟ قلتُ ذاك حتى يُتشفى منه. قال: أنا ما أتشفّى من أحد. قلت: إنما أردت الأتباع، قال: ولا نحمل أتباعى على التشفّى. فأطرقت خجلًا فما توجّه أحد لنا بالأذى بعد ذلك، فنزلت به نازلة، فهمّت النفس بالتشفّى منه إلّا وذكرت كلام الشيخ: «أنا ما أتشفى من أحد» حتى كأنى قد سمعته ذلك الوقت، فتخمد النفس عن التشفى بذلك، واتفق بعد مدة نحو

---

(١٢) يوسف: ١٠٦.

(١٣) الذرى: الكنف والضيافة والستر والدفء.

(١٤) البقرة: ١٨٦ وتمامها: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾.

(١٥) ق: ١٦.

(١٦) غافر: ٦٠.

(١٧) النساء: ٣٢.

(١٨) الحجر: ٢١.

خمسة عشر عامًا أن الذى كان قد سعى فى أذيّة الشيخ سعى فى إذايتنا فانفقت له نازلة، فصانني الله من التشفّى منه وسلّم.

وكان الشيخ يقول: هذا الذى استشرتك فيه سيتّفق لك معه مثل ما اتفق لى، فافعل معه كما فعلت معه، وهذا هو كلام الأكابر يطوى فى صحائف قلوب المريدين، حتى إذا جاء وقته أظهره الحق سبحانه، كأنك قد سمعته فى ذلك الوقت.

وربما أحضر الله بفكرك شيخك الذى خاطبك به بهيئته وزيّه ، وربما تمثّل ذلك فى الخيال المنفصل.

وربما حضر بوجوده الحسّى عند وجود النوازل مثبّتًا للمريد ومعلمًا.

وسمعته رضى الله عنه يقول: ما سمعتموه منى ففهمتموه فاستودعوه الله يردّه عليكم وقت الحاجة، وما لم تفهموه فكلوه إلى الله يتولّى الله بيانه.

فكلام الأكابر مردود على المريدين وقت حاجاتهم فيظّن المريد أنه ما أخذ ولقد أخذ، ولكن للحكمة بذر ونبات، ووقت البذر غير وقت النبات، وقد يبذر فيك بذر الحكمة ويبقى النبات موقوفًا على مجيء سحابة ماطرة، فإذا جاءت أظهرت من الأرض ما كان فيها كامنًا، فتبقى الودائع مطوية فى العباد حتى تجيء أوقاتها.

وبلغنى عن الشيخ أبى الحسن أنه كان يقول: لا حجاب إلّا الوقت.

وسمعته يومًا يقول: كان إذا آذانى إنسان يهلك للوقت وأنا الآن لست كذلك. فرآنى رضى الله عنه مستشرفًا لسبب ذلك، فقال: اتسعت المعرفة. وسمعته يقول: لحوم الأولياء مسمومة!

واعلم علّمك الله من العلم الذى يدلّ عليه، وجعلك من الدائمين بين يديه. أن انتصار الحق لأوليائه ليس ذلك لهم لأنهم طلبوه من الله، ولكن لما صدقوا التوكل عليه، وأرجعوا الأمر إليه انتصر الحق لهم، ألم تسمع قوله تعالى:

﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾.

وقوله عز وجل:

﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسْبه﴾.

ولا تقولن هم ممن ينتصر لنفسه منك، بل عدهم ممن ينتصر الله له، فإنه الغالب الذى لا يغلب، والقادر الذى لا يعجز، والقاهر الذى لا قبل لأهل السموات والأرض بذرّة من بلائه، ولو وضع ذرّات قهره على الجبال لأذابتها.

ومعنى قول الشيخ: «اتسعت المعرفة» أن المريد فى مبدأ إرادته بهمّته، وفى نهايته بوجود معرفته، فإذا كان فى مبدأ إرادته توجّه بصدق الهمّة إلى الله لاجئًا إليه فى الانتقام ممن آذاه فينتصر الحق له لتوجهه بصدق الهمة فى طلب النصرة، ولضيق عطنه عن الصبر على تأخر الانتقام له، والعارف اتسع عليه بحر المعرفة، فانطوت همته وإشاءته وتدبيره فى إشاءة الحق له، وتدبيره إياه ومن غلب عليه شهود المشيئة فأىّ همّة تبقى له!

وأيضًا: إنه إذا أخرت عقوبة من آذاه شهد حسن اختيار مولاه، فلم يعجل له الانتصار؛ لأنه لا يخشى عليه ما يخشى على المريد من عدم الصبر إذا أخر الانتقام له.

وأيضًا: إن العارف لما توجّه لطلب الانتقام ممن ظلمه قامت الرأفة والرحمة القائمتان به لتخلُّقِه بخلُق معروفة[١٩] فمنعاه من الانتصار وإن كان على ذلك قادرًا، وكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعّالًا فيهم؟!

ثم أولياء الله إذا ظُلموا على طبقات:

داع يدعو على من ظلمه، استثار الأذى منه القرح، واستخرج منه الاضطرار، فهذا الذى لا يردّ دعاؤه ومنه قوله ﷺ:

«واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٢٠].

القسم الثانى: وهم الذين إذا ظُلموا لجئوا إلى الله سبحانه فى طلب النصرة وتعجيل الإجابة، غير أنهم علموا أن الله يعلم السر وأخفى فرفعوا أمرهم إلى الله سرًّا بسرّ وهؤلاء أولى بانتصار الحق لهم لتوكلهم عليه، ولإرجاعهم الأمر إليه، وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسْبُه﴾[٢١].

ولقد ذكر أن امرأةً كان لها دجاجة، ليس عندها غيرها، وكانت تتقوّت من بيضها فجاء سارق فسرقها، فلم تدع عليه، وأرجعت الأمر إلى الله سبحانه، فأخذ السارق الدجاجة فذبحها ونتف ريشها فنبت جميعه بوجهه، فسعى فى إزالة ذلك فلم يستطع، وسأل الناس فلم يقدر أحد على إزالة مانزل به، إلى أن أتى حبرًا من أحبار بنى إسرائيل، فقال: لا أجد لك دواءً إلّا أن تدعو عليك المرأة التى سرقت دجاجتها، فإن فعلت ذلك شفيت.

فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك التى كانت عندك؟

قالت: سُرقت.

قالوا: لقد آذاك من سرقها.

قالت: قد فعل.

قالوا: وقد فجعك فى بيضها.

قالت: هو كذلك.

فما زالوا بها حتى أثاروا الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه.

فقيل لذلك الحبر: من أين علمت هذا؟

قال: إنها لما سرقت دجاجتها لم تدع عليه، ورجعت إلى الله فى أمره، فانتصر الله لها، فلما دعت

---

(١٩) أى لتخلقه بخلق الله سبحانه من الرحمة والرأفة.

(٢٠) رواه أحمد والبخارى فى الزكاة والجهاد والمظالم والمغازى، ومسلم فى الإيمان، وأبو داود فى الزكاة، والترمذى فى الزكاة، والنسائى فى الزكاة، وابن ماجه فى الزكاة، والدارمى فى الزكاة.

(٢١) الطلاق: ٣.

انتصرت لنفسها، فسقط الريش من وجه السارق.

القسم الثالث: عباد لما ظلموا لم يدعوا ولم يلجئوا إلى الله فى طلب الانتقام ممن ظلمهم، ولكن فوضوا الأمر إلى الله، فكان هو المختار لهم.

القسم الرابع: وهم الطبقة العليا وهم الذين إذا ظلموا رحموا من ظلمهم.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه.

وإذا آذاك ظالم فعليك بالصبر والاحتمال، واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان، ظلم غيرك لك، وظلمك لنفسك؟

فإذا فعلت ما ألزمت به من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تعفو وتصفح، وربما أثابك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعو له، فتجاب فيه دعوتك.

وما أحسن حالك إذا رُحم بك من ظلمك، فتلك درجة الصديقين الرحماء: ﴿فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾(٢٢).

ومن هذا القبيل الذى ذكره الشيخ أبو الحسن: ما اتفق لإبراهيم بن أدهم - رضى الله عنه - أنه قال له جندى: أين العمران؟ فأشار إلى المقابر، فظن أنه يهزأ به، فضربه فشجه، فطأطأ رأسه، وقال: اضرب رأسا طال ما عصت الله تعالى.

فقيل للجندى: هذا إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان، فانكب على رجليه يقبلها، ويعتذر إليه، فقال له ابراهيم بن أدهم: والله مارفعت يدك من ضربى إلا وأنا أسأل الله لك المغفرة لأنى علمت أن الله يثيبنى على مافعلت بى، ويؤاخذك على مافعلت: فاستحييت أن يكون حظى منك الخير وحظك منى الشر.

فقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: ليس هذا عين الكمال، مافعله الصحابى سعد أحد العشرة وهو عين الكمال، ادعت عليه امرأة أنه احتاز شيئًا من بستانها، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعمها وأمتها فى مكانها. فعميت وجاءت يوما تمشى فى بستانها، فوقعت فى بئر فماتت، فلو كان مافعله إبراهيم عين الكمال لكان الصحابى أولى به ولكنه كان سعد أمينا من أمناء الله، نفسه ونفس غيره عنده سواء، فما دعا عليها لأنها آذته، ولكن دعا عليها لأنها آذت صاحب رسول الله ﷺ، وإبراهيم لم يصل إلى هذه المرتبة، فترك الدعاء على الجندى لئلا يكون ذلك انتصارا لنفسه، وسعد رضى الله عنه قد خلصه الله من نفسه وأبرزه إلى الخلق، يخلص به من يشاء من عباده، والصوفى لا يستقضى الحق لنفسه ولكن يستقضى الحق لربه.

فـائدة:

اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم فى بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتتكمل فيها المزايا، وكيلا يساكنوا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: جُبلت

(٢٢) آل عمران: ١٥٩.

القلوب على حب من أحسن إليها.

وقال ﷺ: من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا[٢٣] له. كل ذلك ليتخلص القلب من إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك فى قلبك، وشرهم يصيبك فى بدنك، ولأن تصاب فى بدنك خير لك من أن تصاب فى قلبك، ولعدو تصل به إلى الله، خير لك من حبيب يقطعك عن الله، وعد إقبالهم عليك ليلًا وإعراضهم عنك نهارًا ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا؟

وتسليط الخلق على أولياء الله فى مبدأ طريقهم سنة الله فى أحبائه وأصفيائه، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك فنسألك بذله ذلا تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقد تصحبه أنوار محبتك.

ومما يدلك على أن هذه سنة الله فى أحبائه وأصفيائه قول الله سبحانه: ﴿وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾[٢٤]، وقال عز وجل:

﴿حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا﴾[٢٥].

وقوله عز وجل:

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض﴾[٢٦]، وقوله عز وجل:

﴿أُذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلّا أن يقولوا ربنا الله﴾[٢٧].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

فمن حالهم فى بداياتهم طأطأ إبراهيم بن أدهم رأسه حين ضربه الجندى وقال: اضرب رأسا طال ماعصت الله تعالى.

وقوله: فرحت من عمرى مرتين.

مرة كنت فى مسجد فأصابنى البطن فكنت أقوم وأقعد، فجاء صاحب المسجد وأمرنى أن أخرج فلم أستطيع لقوة الضعف، فأخذ برجلى يجرنى حتى أخرجنى؟؟

والمرة الثانية: ركبنا فى سفينة وكان هناك مضحاك، فكان يقول: كنا نأخذ العلج فى بلاد الروم

---

(٢٣) رواه أبو داود والنسائى بإسناد صحيح بنحوه.

(٢٤) البقرة: ٢١٤.

(٢٥) يوسف: ١١٠.

(٢٦) القصص: ٥

(٢٧) الحج: ٣٩، ٤٠.

هكذا ويمد يده إلى لحيتى فيهزها فأعجبنى ذلك إذ لم ير فى السفينة من هو أحقر منى.

وهذا شأنهم فى بداياتهم علما منهم بوجود البقايا فيهم فخافوا أن ينتصروا فينتصروا لأنفسهم، فيسقطون من عين الله تعالى، فرجعوا إلى وجود الحلم كافين أيديهم عن الانتصار؛ لعلمهم بآفات الانتصار للنفس، وشرعة الحق سبحانه وعادته فى أصفيائه كثرة الأعداء والنصرة منه لهم عليهم.

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

آذانى إنسان مرة فضقت ذرعا بذلك فنمت فرأيت قائلا يقول لى: «من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالى بهم».

ويجب أن تعلم أن النفوس شأنها استحلاء الإقامة فى مواطن العز والرفعة، فلو تركها الحق سبحانه وما تريد لهلكت، فأزعجها عن ذلك بما يسلط عليهم من أذى المؤذين ومعارضة الحاسدين.

وقال بعض العارفين: الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب، إذا ساكنت غيره، لولا ذلك لرقد القلب فى ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله عظيم.

وصدق رضى الله عنه.

وهذا الصنع من حسن نظر الله تعالى لأوليائه وأحبائه، وإظهار لآثار ولايته فيهم لقوله عز وجل: ﴿الله ولى الذين آمنوا﴾.

فإنما تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم حكمهم فى العباد، فحينئذ يكون العبد المجتبى سيفا من سيوف الله تعالى ينتصر الله به لنفسه.

من هذا الباب دعا سعد على المرأة التى ادعت عليه كذبا وقال: اللهم أعم بصرها وأمتها فى مكانها، فاستجيب له، ولما دُخل على عثمان بن عفان رضى الله عنه الدار لطم إنسان وجه زوجته، فقال له عثمان رضى الله عنه: قطع الله يديك ورجليك وأدخلك فى النار.

فرئى ذلك الرجل بالشام وقد قطعت يداه ورجلاه، وهو يقول: دعوة عثمان استجيبت فى اثنتين وبقيت الثالثة، ولذلك قد تلتبس أحوال الرجال على عموم العباد فلا تُفضّل وليا ظُلم فصفح على ولى ظلم فانتصر أو دعا، فقد يكون صفْح من صفَح لعلمه بالبقايا فى نفسه، ودعاء الداعى لعلمه بتطهيره من البقايا فدعا انتصارا لربه.

وأما صبره، فكان رضى الله عنه من الثابتين فى مركز الصبر، وكان به أمراض عديدة لو وضع بعضها على الجبال لذابت: كان به برد الكلى، وكان به الحصى، وكان به اثنا عشر باسورا وهو يجلس للناس، ولا يقطع الجلوس لهم ولا يتأوه فى حين جلوسه، ولا يعلم الجالس عنده أن به شيئا من الأمراض، ولم تكن الأمراض أورثته صفرة فى الوجه، ولا تغيرا فى البدن حتى كان يقول: لا تنظروا إلى حمرة وجهى فحمرة وجهى من قلبى.

ودخل عليه إنسان فوجد ألما به، فقال ذلك الرجل: عافاك الله يا سيدى. فسكت الشيخ رضى الله عنه ولم يجاوبه، ثم مكث ذلك الرجل ساعة، وقال: الله يعافيك يا سيدى. فقال الشيخ: وأنا سألت الله العافية، أنا قد سألته العافية والذى أنا فيه هو عين العافية.

رسول الله ﷺ قد سأل العافية، وقد قال رسول الله ﷺ: ما زالت أكلة خيبر تعتادنى فالآن قد قطعت أبهرى(٢٨).

عمر رضى الله عنه قد سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مطعونا.

عثمان رضى الله عنه قد سأل الله العافية وبعد ذلك مات مذبوحا.

على رضى الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مقتولا.

فإذا سألت الله العافية فاسألة العافية من حيث يعلمها لك إنها عافية.

وكان رضى الله عنه يقول: الصبر مشتق من الأصبار، وهو الغرض الذى يرمى عليه بالسهام، فالصابر من نصب نفسه غرضا لسهام القضاء.

وكان هجيراه يسأل الله اللطف قل أن يفتر عن ذكر ذلك.

ودخلت عليه يوما فوجدت ألما به فقلت: يا سيدى أظنك ضعيفا فقال رضى الله عنه: الضعيف من لا إيمان له ولا تقوى.

واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام:

صبر على الواجبات، وصبر على المحرمات، وصبر فى البليات.

وصبر الأكبار على كتم الأسرار، وفقد الركون إلى الآثار، وعدم الوقوف مع الأنوار.

صبرهم، على حمل الأذى، والثبوت تحت مجارى القضاء.

صبرهم على حمل أثقال العباد، والصبر مع الله فيما أراد.

صبرهم على القيام بأحكام العبودية، والثبوت لمجارى أحكام الربوبية.

صبرهم على مكارم الأخلاق؛ والقيام مع الله بشرط الوفاق.

صبرهم على جمع الهمم عليه، والرجوع فى كل أمرهم إليه.

صبرهم على الجلوس للخلق، والدلالة على الملك الحق.

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: والله ما جلست للخلق حتى هُدِّدت بالسلب.

وقيل لى: لئن لم تجلس للناس لنسلبنك ما وهبناك.

وأما سداد طريقته، فكان رضى الله عنه شديد التحرز من حقوق العباد، مسرعا للوفاء بها حتى أنه يوفى الشيء قبل استحقاقه، ويحمل أصحابه على التخلص من حقوق العباد.

إذا كان عليه دين أحسن القضاء، وإذا كان له حق أحسن الاقتضاء، منقطعا عن أبناء الدنيا والتردد إليهم، لا يرفع قدمه لأحد منهم، ولا يبعث إليهم، ولا يكاتبهم إذا طلب منه أن يكتب إليهم، قال لطالب ذلك: أنا أطلب لك ذلك من الله، فإن رضى الطالب بذلك نجح مسعاه، ولطف به

---

(٢٨) الأبهر: عرق فى الظهر. يقال هو الوريد فى العنق، وقال أبو عبيد: «الأبهر: عرق مستبطن فى الصلب، والقلب متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة» اهـ

مولاه متبتلا إلى الجلوس للخلق، لا تأتيه ليلا ولا نهارا إلا وجدته.

ولقد أتيته يومًا واستأذنت عليه، فقيل لى: اصبر قليلا، فتشوّشت من ذلك، وقلت: قد يكون بلغ الشيخ عنى ما أوجب تغيره.

فبعد ساعة أذن لى فدخلت، فقال الشيخ رضى الله عنه: اعذرنى، كانت ابنة الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه عندى فكرهت أن أقطع كلامها، والله ما أعد نفسى إلّا خادمًا من خدامهم!

وكان ينهى أن يُعوقَ المريد إذا جاءه ويقول: المريد يأتى بشعلة همّته، فإذا قيل له: قف ساعة؛ طَفِيْتَ ما جاء به.

وكان لا يدلّ المريد على المتاعب والمشقات ولا يلزمه ذلك.

وكان يقول عن شيخه أبى الحسن: ليس الرجل من دلَّك على تعبك، إنما الرجل من دلَّكَ على راحتك.

ومبنى طريقته رضى الله عنه على الجمع على الله، وعدم التفرقة؛ وملازمة الخلوة والذكر.

ولكل مريد معه سبيل يحمل كلٌّ واحد على السبيل التى تصلح له.

وكان لا يحب المريد الذى لا سبب له.

وكان يدلّ المريدين على الانجماع فى حبّه، ولا يُلزِم المريد أن لا يرى غيره.

وكان يقول عن شيخه رضى الله عنه: أصحبونى ولا أمنعكم أن تصحبوا غيرى، فإن وجدتم منهلًا أعذب من هذا المنهل فردوا.

وكان إذا دخل المريد فى أوراد بنفسه وهواه أخرجه عنها.

وكان إذا مُدِح بقصيدة أو أبيات يجيز المادح بإقباله، وربما واجهه بنواله. وكان مكرمًا للفقهاء، ولأهل العلم وطلبته، إذا جاءُوه!

وكان يقول لأصحابه إذا جاء رئيس أو ذو وجاهة: عَرِّفُونى به.

وكان أزهد الناس فى ولاة الأمور، فإذا جاءُوه أكرمهم وربما مشى لهم خطوات.

وكان شديد التعظيم لشيخه أبى الحسن رضى الله عنه، حتى إنك كنت تشهد منه أنه لا ثبات منه لنفسه معه.

وكان ينشد إذا ذكر الشيخ رضى الله عنه هذه الأبيات:

لى سادة من عزّهم أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلى فى حبّهم عزّ وجاه

وكان من شأنه أن ما عُنِى به لا يأكله.

وكان يكره أن يعلم بطعامَ أو هدية قبل إتيانها.

وكان لا يدعو للمحسن بحضرته، بل إذا غاب دعا له بظهر الغيب.

وكان إذا أهدى له شيء يسير تلقّاه ببشاشة وقبول، وإذا أهدى إليه شيء كثير تلقّاه بالعزّ.

وكان لايمن على مريد ولا يرفع له علمًا بين إخوانه خشيةً عليه أن يُحسد.

وكانت صلاته موجزة فى تمام، وكان يقول: صلاة الأبدال خفيفة.

وكان إذا تلا تقول الكون كله مستمع له، وصلّى قيام رمضان سنةً، فقال: قرأت القرآن فى هذه السنة، كأنما أقرؤه على رسول الله ﷺ، ثم جاء رمضان الثانى، فقال: قرأته فى هذه السنة: كأنما أقرؤه على جبريل عليه السلام، ثم جاءت السنة الثالثة فقال: قرأته فى هذه السنة كأنما أقرؤه على الله عز وجل.

وكان إذا كانت ليلة القدر أخبر بها أصحابه، ودعا فيها بمقدار ما يدعو كل ليلة ثلاث مرات.

وكان يقول: أوقاتنا كلها والحمد لله ليلة قدر[٢٩].

وأنشدنا بعض إخواننا لبعض أهل الطريق فى المعنى:

لـولا شهـود جمـالكم فى ذاتى ... مـا كنت أرضى ساعـة بحياتى
مـا ليلة القـدر المعـظم شـأنها ... إلّا إذا عَمَـرَت بكم أوقـاتى
إن المحبَّ إذا تمكّن فى الهوى ... والحب لم يحتـج إلى ميقـات

وجاء الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه سنةً، فقال له: يا سيدى رأيت ليلة القدر، ولكن ليس كما أراها كلّ سنة، رأيتها هذه السنة لا نور لها. فقال له الشيخ رضى الله عنه: نورك طمس نورَها يا مكين الدين.

---

(٢٩) كانت هناك محاولات طريفة من بعض العلماء والصالحين لتحديد ليلة القدر: فمثلا قال بعضهم: إن عدد كلمات سورة القدر ثلاثون كلمة كعدد أيام رمضان، وكلمة «هى» التى تشير إلى ليلة القدر فى قوله تعالى فى السورة نفسها «سلام هى» هذه الكلمة تمام سبعة وعشرين. هذه محاولة.

ومحاولة أخرى هى:

إن حروف ليلة القدر تسعة حروف، وقد ذكرت ليلة القدر فى السورة ثلاث مرات، وثلاث فى تسع بسبع وعشرين.

أما الشيخ أحمد زروق رضى الله تعالى عنه فإنه يقول فيها:

إنها لا تفارق جمعة من أوتار آخر الشهر، وقد روى هذا أيضا عن ابن العربى. هذه محاولات أما الثابت اليقين فهو: أن القرآن لم يعيّنها تعيينًا واضحًا، وأن الرسول ﷺ لم يحدّدها تحديدًا تامًّا.

ولقد قال أسلافنا رضى الله عنهم:

أخفى الرب أمورًا فى أمور لحكم:

ليلة القدر فى الليالى لتحيى جميعها - وساعة الإجابة فى الجمعة ليدعو فى جميعها، والصلاة الوسطى فى الصلوات ليحافظ على الكل - والاسم الأعظم فى أسمائه ليدعى بالجميع، ورضاه فى طاعته ليحرص العبد على جميع الطاعات، وغضبه فى معاصيه، لينزجر عن الكل، والولىّ فى المؤمنين ليحسن الظن بكل منهم، ومجىء الساعة فى الأوقات للخوف منها دائمًا، وأجل الإنسان عنه ليكون دائمًا على أهبة.

ويعقب الشيخ أحمد الصاوى على ذلك فى حاشيته على الجلالين فيقول:

«فعلى هذا يحصل ثوابها لمن قامها، ولو لم يعلمها، نعم: العالم بها أكمل. هذا الأظهر».

ولقد رأينا فى عصرنا الحاضر عن تجربة أكثر من واحد يعلمون بليلة القدر، بعضهم يعلمها قبل إتيانها، وبعضهم يعلمها فى ليلتها، وفضل الله أوسع من ذلك وأعظم.

ولقد كنت مع الشيخ مكين الدين هذا بالجامع الغربى من الإسكندرية فى العشر الأواخر من رمضان ليلة ست وعشرين، فقال الشيخ مكين الدين: أنا الساعة أرى ملائكة صاعدة وهابطة فى تهيئة وتعبية، أرأيت تأهب أهل العرس بليلة قبله؟ كذلك رأيتهم فلما كانت الليلة الثانية، وهى ليلة سبع وعشرين، وكانت ليلة جمعة، قال: أنا الساعة أرى ملائكةً معها أطباق من نور، الطبق يوازى مئذنة الجامع، وفوق ذلك ودون ذاك، وهذه هى ليلة القدر، فلما كانت الليلة الثالثة، وهى ليلة ثامن وعشرين، قال: رأيت هذه الليلة كالمتغيّظة وهى تقول: هب أن لليلة القدر حقًا يُرعى، أما لى حق يرعى؟!

وكان الشيخ مكين الدين - رضى الله عنه - من أرباب البصائر ومن النافذين إلى الله عزّ وجل، كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول عنه: بينكم رجل يقال له عبد الله بن منصور، أسمر اللون، أبيض القلب، والله إنه ليكاشفنى، وأنا مع أهلى، وعلى فراشى!

ومرةً أخرى قال الشيخ أبو الحسن أيضًا فيه: ما سلكت غيبًا من غيوب الله إلّا وعمامته تحت قدمى.

ولقد أخبرنى الشيخ مكين الدين هذا، قال: دخلت مسجد النبى ﷺ بالإسكندرية[٣٠] «بالدياس» فوجدت النبى المدفون هناك قائمًا يصلّى، عليه عباءة مخططة، فقال لى: تقدّم فصلّ.

فقلت له: تقدم أنت وصلّ. قال: تقدّم أنت وصلّ، فإنكم من أمّة نبىٍّ لا ينبغى لنا التقدم عليه!

قال: فقلت له: بحقّ هذا النبى إلّا ما تقدّمت فصلّيتَ.

قال: فأنا أقول: بحق هذا النب إلّا وهو قد وضع فمه على فمى إجلالا للفظة النبى كيلا يبرز فى الهواء!

قال: فتقدمت فصلّيت.

وأخبرنى الشيخ مكين الأسمر أيضًا؛ قال: بتُّ بالقرافة ليلة الجمعة، فلما قام الزوّار قمت معهم، وهم يتلون إلى أن انتهوا فى التلاوة إلى سورة يوسف عليه السلام، ومنها إلى قوله عزّ وجل: ﴿وجاء إخوة يوسف﴾ وانتهوا فى الزيارة إلى قبور إخوة يوسف، فرأيت القبر قد انشق وطلع منه إنسان طويل، خفيف شعر اللحية صغير الرأس آدم اللون، وهو يقول: من أخبركم بقصتنا؟ هكذا كانت قصتنا.

ولقد كنت يومًا مضطجعًا وأنا ساكن مطمئن وأجد فى قلبى انزعاجًا على بغته وباعثًا يبعثنى على الاجتماع بالشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه، فقمت مسرعًا فدققت الباب فخرج، فلما وقع بصره علىّ قال: أنت ما تجىء حتى تسير الناس خلفك. وتبسّم قلت: يا سيدى قد جئت. فدخل وأخرج لى وعاءً، وقال: هذا الوعاء اذهب به إلى الشيخ أبى العباس وقل له: قد كتبت فيه آيات من القرآن ومحوتها بماء زمزم وشىء من العسل، فذهبت بذلك للشيخ أبى العباس رضى الله عنه فقال: ما هذا؟ قلت أرسله إليكم الفقيه مكين الدين الأسمر، فأدلى فيه إصبعًا واحدًا وقال: هذا

---

(٣٠) هو نبى الله «دانيال» من أنبياء بنى إسرائيل

بحسب البركة وفرغ الوعاء وملأه عسلاً، وقال اذهب به إلى الفقيه. فذهبت بذلك إليه ثم عدت إليه بعد ذلك فقال لى: رأيت البارحة ملائكة أتونى بأوعية من زجاج مملوءة شرابًا وهم يقولون خذ هذا عوض ما أهديت للشيخ أبى العباس رضى الله عنهم أجمعين.

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة.

وكان رضى الله عنه يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله حتى إنه ربما دخل عليه مطيعٌ فلا يهتبل[٣١] به وربما دخل عليه عاصٍ فأكرمه، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكثّر بعمله ناظر لفعله، وذلك العاصى دخل عليه بكسر معصيته وذلّة مخالفته[٣٢].

وكان شديد الكراهة للوسواس فى الطهارة والصلاة، ويثقل عليه شهود من كان ذلك وصفه، سئل يومًا وأنا حاضر فقيل له: يا سيدى فلان صاحب علم وصلاح كثير الوسوسة فقال: وأين العلم والصلاح يا فلان؟ العلم هو الذى ينطبع فى القلب كالبياض فى الأبيض والسواد فى الأسود.

---

(٣١) أى: لا يهتم به.

(٣٢) ولابن عطاء الله فى ذلك حكمة جليلة بقولها فيها:
«معصية أورثت ذلًا وافتقارًا، خير من طاعة أورثت عزًا واستكبارًا»!